نهاية التاريخ والهيمنة الغربية - التجلّيات والأبعاد

■ أ.د. عبد القادر بوعرفة[1]

ملخّص

لم تكن مقولة "نهاية التاريخ" مجرَّدَ تنبُّؤات سياسية، أو تحليلات فلسفية ضمن مجال "فلسفة التاريخ"، بل كانت أرضيّةً استراتيجية لتأسيس "الهيمنة الخيِّرة" لأمريكا، كما يُسمِّيها المحافظون الجُدد. ويَبدو جليًّا أن هاجس الهيمنة الأمريكية بدأ منذ عهد الرئيس الثالث للولايات المتحدة (توماس جيفرسون - Thomas Jefferson)، حين بشَّرَ بميلاد إمبراطورية جديدة، ستَملأ الأرضَ عدلًا، وحرية، ومساواة، وتكون وجهةَ المُضطهَدينَ.

ونَظرًا للصِّراع بين أمريكا والاتِّحاد السوفياتي سابقًا، عملَت أمريكا على فرض هيمنتِها على العالم الغربيِّ بعد الحرب العالمية 2، وعلى العالَم الثالث عبر مشاريعَ اقتصاديةٍ وأخرى سياسية، ولا سيَّما مشروع "موجة الحرية"، الذي كان يهدف إلى إحداث ثورات بالبلدان غير المُهيمَن عليها. وقد أحدثَ سقوطُ المعسكر الشرقي، بعد سقوط جدار برلين سنة 1989م، ثورةً فكرية داخل المؤسسات الغربية، فظهرَت عدّةُ مَقولات ترتبط بفكرة "النِّهاية"، كان أشهرها مقولة "نهاية التاريخ"، التي تُسَوِّغُ في جوهرها للهَيمنة الأمريكية، وتوسيع مجال الدَّمَقرطةِ اللِّيبرالية، وتَحويل العالم إلى سوق ليبرالي، حيث يَنتهي تطوُّرُ المجتمع عند نقطة ما سمّاها (فو) "مجتمع السُّوق العالمي"، وهذه الهَيمنةُ "كانت الغايةَ منها أمركةُ العالم، والسَّيطرة عليه عبر "القوة الناعمة".

الكلمات المفتاحية: نهاية، التاريخ، الهيمنة، الدمقرطة، الأمركة.

1 - أستاذ جامعي - جامعة وهران2 - الجزائر.

مقدمة

إن مفهومَ "نهاية التاريخ" مفهومٌ قديم قدمَ الإنسان نفسه، حيث اتَّسع مع التوسُّعات العسكرية الكبرى في تاريخ البشرية. وإنَّ ما سُمِّي بالفُتوح المَقدونية ما هو إلا محاولةٌ لتحقيق وَهم السيطرة على العالم سيطرةً كاملة، حيث حاول (الإسكندر) توحيد العالم تحت زعامة شخصٍ واحد، تُشبِهُ إلى حـدٍّ ما هَيمنة الإله "زيوس" على الكون في المِخيال الإغريقي. ويَبدو أنَّ الرُّومان أنفسـهم حاولوا تحقيق حلم نهاية التاريخ عبر احتلال المعمورة، فأرسلوا فيالِقَهم في جميع الاتِّجاهات، فسيطروا زمنًا طويلاً على كثير من الأمم: "وبعد محاولة اليونان لإنهاء التّاريخ جاء دورُ الرُّومان، وقد داعبَهم حلمُ رَومنة العالَم عن طريق القوة ومبدأ السيادة على الأرض، غير أن ظروفًا اجتماعية وأُخرى كونية منعَت الرُّومان من تحقيق مقولة «الأرض للرومان» التي ذَكرها مونتسكيو في كتابِه «أسباب عظمة وانحطاط الرومان»."[1].

ونُلاحِظ من جانب آخر، أنَّ المسـلمينَ أنفسَهم حاولوا تحقيق "نهاية التاريخ"، عبر ما يُسمَّى الفتوحات الإسـلامية الكبرى، التي انتشرت انتشارًا واسعًا، وشكَّلَت جغرافية جديدةً تقوم على أساس التَّمكين لله في الأرض، وأنَّ المسلمينَ هم الأعلَونَ.

أمّـا الأنموذج الرابـع والأخير، فيَتمثَّل فيما شـهده العـالم في نهاية القـرن العشرين، حيث قـدَّم الجناحُ اللِّيبراليُّ المُتوحِّش نظريـةَ "نهاية التاريخ" لعَرّابها (فرانسـيس فوكوياما- Francis Fukuyama)، عبر مقال نشره سنة 1989م، ثم حوَّلَه إلى كتاب سنة 1992م، بعنوان "نهاية التاريخ والإنسان الأخير".

يَزعم (فوكوياما) أنَّ الحربَ الباردة انتهَت فعليًّا، وأن المحورَ الشُّيوعي أنهار سياسيًّا واقتصاديًّا،

1 - عبـد القـادر بـوعـرفـة: "الأساس الأسطوري لنهاية التاريخ"، ص101.

وهذا الانهيار يُعَدُّ بمثابة انتصار للديمقراطية اللِّيبرالية، ولا سيما بعد سقوط جدار برلين. الذي سيَجعل من الدِّيمقراطية اللِّيبرالية مُستقبلاً الشَّكلَ النِّهائيَّ لأي حكومة على وجه الأرض. وهذا سيُعزِّزُ النِّظامَ الدِّيموقراطي، باعتباره أيضًا يُعبِّر عن نهاية التطوُّر الإيديولوجي للفكر السياسي، مما يجعل هذه النهايةَ تَنفي أيَّةَ تحوُّلات جوهرية في الأيديولوجية السياسية المُهيمنة. بمعنى انتصار "الجدل الهيجلي" على "الجدل الماركسي"، وأنَّ الفكرةَ الأكثر تطوُّرًا واكتمالاً قضَت على نقائضها، وأنَّ نَفيَ النَّفي الماركسي لم يعدْ له وجود، نظرًا إلى أنَّ الفكرة الكاملة لا تَتناقض مع ذاتها أولاً، ولم يبقَ لها أيُّ نقيض على المستوى الخارجي، في شَبَهٍ مُباشر بالدّاروينية وصراع البقاء.

ويبدو أنَّ ساسة أمريكا بالخصوص، يَنظرون إلى السياسة من وجهة داروينية بحتة، فغيَّروا طرفيَ المعادلة، فبدل وضعها في المجال البيولوجي تمَّ وضعُها في المجال السياسي.

وممّا سبق ذكره، نعتقد أن مقولةَ "نهاية التاريخ" قديمًا وحديثًا لا تختصُّ بأُمَّة ما، بل هي مقولةٌ الغرضُ منها السَّيطرة والهيمنة، وبسط النُّفوذ على الآخَر، ومحاولة تَدجينه سياسيًّا، واقتصاديًّا، وثقافيًّا.

وعليه، كيفَ نَنظرُ إلى مقولة "نهاية التاريخ"؟ هل هي تأسيس للهَيمَنة؟ وكيف صنعَ منها الغرب اللِّيبراليُّ وسيلةً للسيطرة؟ وما أوجه الهيمنة المُمكنة؟ وما أليّات المُواجهة والمقاومة؟

أولاً: نهاية التَّاريخ والتأسيس للهيمنة

يَبدو جليًّا أنَّ فكرةَ "نهاية التاريخ" هي تأسيس للهَيمنة الغربية عامّةً، والهيمنة الأمريكية خاصّةً، من منظور سياسيٍّ أولاً، حيث اعتبرَ أنصارُها أن انتصار الأنظمة السياسية والاقتصادية الغربية على الأيديولوجيات المارقة والمُتوحِّشة هو إعلانٌ عن نهاية الآخَر، بمعنى أنَّ الدِّيمقراطية السياسية اكتسحَت العالَمَ مُنتصِرةً حتى على الدِّيمقراطيات الاجتماعية ذات التوجُّه الاشتراكي، فسقوط جدار برلين هو إعلان عن نهاية الدِّيمقراطية الاجتماعية الاشتراكية، وسيطرة الدِّيمقراطية السِّياسية، التي يَبدو أنَّها حقَّقَت قفزةً نوعية في حقوق الإنسان والمواطنة أكثر من أي نظام سياسي بديل[1].

إنَّ المَنطوق والشائع أنَّ "نهاية التاريخ" هي دخول إنسان القرن الحادي والعشرين في نظام عالمي إنساني، تَسوده قِيَمُ العَولمة والمُواطَنة العالمية، مع انتشار ثقافة الحِوار والتَّواصُل،

1 - النقيد سيف محمد حيدر: نظرية "نهاية التاريخ" وموقعها في إطار توجهات السياسة، ص9.

وفلسفة المشترك الإنساني.

وبالفعل أصبحت القِيَم والمؤسسات والأنظمة الغربية مُهيمنةً عالميًّا، فباسم الدِّيمقراطية وحقوق الإنسان تمَّ غزوُ أُمَم وشعوب، وباسم العَولمة والمواطنة تمَّ مَحوُ ثقافات وعادات اجتماعية، وتحوّل الإنسان المعاصر إلى كائن ذي بُعد واحد فقط، مُنخرِطًا في ثقافة الاستهلاك، ومُتَماهيًا مع عالم الأشياء، مُعتقِدًا أنَّ الغرب هو نهاية الحضارة، ومبلغُ الثقافة، وأنَّ كلَّ مَن يُخالفه هو رَجعيٌّ، ومُتخلِّف.

إنَّ النَّظرَ العميقَ، والتَّحليلَ الثّاقب، يُفيد أن خطاب "نهاية التاريخ" هو تَفسير لشهوة السَّيطرة والهَيمنة المُتمكِّنة من الذات الغربية، التي تَرى أنَّ الإنسان الأبيض هو الإنسان الأعلى والمُتفوِّق، على حسب الكثير من أنصار فلسفة التفوُّق ومَقولات النهاية، ولقد عبرَّ عن هذا التوجُّه في القرن السابع عشر (جاك بوسييه - Jacques-Bénigne Bossuet) حين اعتبرَ أن الأرضَ لم تُخلَق إلاّ للإنسان الأبيض[1].

وهي العبارة نفسُها التي كرَّرَها قديمًا أرسطو، حين اعتبرَ أن الأرضَ مركزُ الكون، وأن الإنسانَ الإغريقي هو مركز الأرض.

تجذَّرت مركزيّةُ الإنسان الأبيض في نفوس الأمريكيين منذ أن مرَّ أجدادُهم بمرحلة "شُذَّاذ الآفاق"، والتي يَحلوا لهم تَسميتُها بـ: "أجدادنا المسافرون"، حيث هَيمنوا على أرض شعوب أمريكا الشَّمالية، وأبادوهم إبادةً مريعة، وبقيت ذهنيّةُ السَّيطرة في أذهانهم إلى وقتنا المعاصر: "فكرُ الهَيمنة إذن ليس وليدَ القرن العشرين، ولكنَّه ترسَّخَ مع البدايات الأولى للدولة الأمريكية، فالهَيمنة المعنوية والتجارية التي يتمتَّع بها الأمريكيون، والقائمة على القوة العسكرية والثِّقة بالنفس، ليست قضيّةً مُستحدَثة، بل بدأت مع ظهور أصول الأمّة الأمريكية الأولى، حيث ظلَّت هذه الهَيمنة تمثِّل جوهرَها الأساسيَّ، فلا تزال أسطورةُ "أجدادنا المسافرون" تُؤثِّر في العقلية العامّة للأمريكيين."[2].

دفعَت هذه العقليةُ الأمريكية الرئيسَ الثالث لأمريكا (توماس جيفرسون - Thomas Jefferson) (بريطاني الأصل) إلى اعتبار أمريكا تمُثِّل هَيمنةَ الرَّجل الأبيض، حاثًّا ساستَها وقادتَها على تحمُّل

1 - Jacques-Bénigne Bossuet: Oeuvres de Messire Jacques-Bénigne Bossuet, p. 396.

2 - بشير عبد الفتاح: أزمة الهيمنة الأميركية، ص.ص. 14-15.

المسؤولية التاريخية، والمُتمثِّلة في استعادة الإرث البريطاني، وتأسيس إمبراطورية جديدة تستند لقوة عسكرية هائلة، واضعًا لها بعضَ المُبرِّرات الأخلاقية والإنسانية، التي حملَت بعضَ معالهما قصدية "العملاق الجديد" المَحفورة في قاعدة تمثال الحرية.

ومن ناحية أخرى، جسَّـد الرئيسُ الأمريكي (هـاري ترومان - Harry S. Truman) خطواتها في مشروعه الشـهير "سياسـة ملأ الفراغ"، إذ بعد الحرب العالمية الثانية شهدت أمريكا سياسةً عُدوانية توسُّـعية، فحاولت قدرَ الإمكان ملأ الفراغ الذي نتجَ عن انسحاب الاحتلال التقليدي، الذي مثَّلته كلٌّ من فرنسا وبريطانيا.

يُقـدِّم الأمريكيـون مصطلحًـا غريبًا للعـالم، يتمثَّـل في "الهيمنـة الخـيِّرة" (Benevolent Domination)، ومَفادهـا أنها هَيمنةٌ تُحقِّق الحريّةَ والمُسـاواةَ، وتُصدِّرُ الدِّيمقراطية لشـعوب العالم، وقد عبرَّ عنها (فوكوياما) في قوله: "كثيرون من المحافظين الجُدد جادلوا في أثناء أواخر التسعينيات من 1990 في أنَّ على الولايات المتحدة أن تَستخدم قوّتَها العسكرية المُسيطِرة لتأكيد 'الهَيمنة الخيِّرة' على الأجـزاء المُهمّة من العالم من الناحية الاسـتراتيجية. وبغَزو إدارة (بوش) للعراق لم ترَ نفسَها بوَصفِها تتصرَّف انطلاقًا من المَصلحة الذاتية الضيِّقة، بل بوَصفها تُقدِّم خيراً كونيًّـا عامًّا. وإيمـانُ الإدارة بدوافعها الطيِّبة يَشرح الكثير من فشـلها في توقُّع ردِّ الفعل الدّولي السَّلبي جدًّا على الحرب."[1].

سنتحدَّث في العناصر الآتية عن أوجه تلك الهيمنة، مع تحليلها، وتِبيان أثارها، وتتبُّع أطوارها، وهي على النحو الآتي:

1 - الهَيمنة الاقتصادية

تُعَـدُّ الهيمنةُ الاقتصادية الهدفَ الأسـاس للغرب اللِّيبرالي، ويمُكن القـول إنَّ الاقتصاد هو العربة، وإنَّ السِّياسـة هي الجزرة التي تَجذب الحصانَ، بمعنى أن الهدف السياسيَّ الذي يُعتبرَ هو الهدف الأول في عرفهم لا قيمة له أصلاً. فالغرب يَسعى إلى الهيمنة على اقتصاديات العالم، سـواء بالنظام الدِّيمقراطـي البَديل أو بالنظام الاسـتبدادي العتيق، فالنِّظام السـياسيُّ ما هو إلاّ المُمَهِّد للهَيمنة.

1 - فرانسيس فوكوياما: أمريكا في مفترق الطرق، ص131.

إنَّ أغلب الدول الغربية قَبِلَت بأمريكا كقوة قائدة لها، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، نظرًا إلى أن أوروبا كانت في أزمة خانقة، وبحاجة إلى دفعة قوية من أمريكا، لذا ساعدت الدُّولُ الغربيــة أمريكا على الهيمنة الاقتصادية، وهذا ما يُؤكِّده (جون كريج - John Krige)[1] في قوله: "ربمَّا يكــون المصطلح الأفضل للاقتصــاد الغربي بعد الحرب هو مصطلــح الهَيمنة الأمريكية التَّوافُقية. ويمُكن اســتخدامُ كلمة 'توافُقيّ' لأنَّ القادة الأوروبيِّين قَبِلُوا قيادةَ واشــنطن في ضَوء احتياجاتهم للمُســاعدات الاقتصادية والأمنية. الهَيمنة مُســتمَدّةٌ من قدرة واشــنطن على وضع مبادئ توجيهية سياســية مُلزِمة للغرب [...]، لقد ذهب (جير لوندســتاد - Geir Lundestad)[2] إلى وصــف الأوروبيين بأنَّهم يَدعون الولايات المتحــدة فِعليًّا إلى بناء نظام مُهيمِنٍ خلال أوائل الحرب الباردة."[3].

تَمنح الهيمنةُ الاقتصادية على مُقدَّرات العالم الدُّولَ الغربية مقوِّماتِ الوجود، فعالَم الأشــياء هــو من قواعد بنــاء الحضارة، ويَبدو أن "عالَم الأشــياء" بدأ في النَّفاد من البلــدان الغربية، نظرًا للإفراط في اســتعمال "الأشــياء"، مما دفعهم للبحث عن الأشــياء خارج جغرافيا الغرب، يقول الباحث (رالف كوســا - Ralph A. Cossa)[4]: "اعتادَت واشــنطن كثيرًا عــلى ترويج مقولة أنَّ الأمن مُتعدِّدُ الأطراف، والمُؤسَّسات الاقتصادية، يَدعمان بعضَهما، وتَربطهما علاقاتٌ راسخة، وبدون حدٍّ أدنى من التَّعاون والاســتقرار السياسي تُصبح التفاعلات الاقتصادية صعبةً، ويصبح تحقيقُ الأهداف المشتركة أمرًا صَعبًا، وبالمُقابل فإنَّ التعاون الاقتصادي يَخدم أغراضًا سياسية، كــما أنَّ عملية تحرير الاقتصاد خطوةٌ هامــة لتحقيق الأهداف الكبرى للأمن السِّــياسي والرَّفاه الاجتماعي."[5].

تحاول فكرةُ نهاية التاريخ القولَ إنَّ "السُّوق الحرّة" هي النِّظام النِّهائي للتطوُّر الاقتصادي، وهو

---

1 - مؤرخ العلوم والتكنولوجيا وأستاذ في كلية التاريخ والتكنولوجيا والمجتمع في معهد جورجيا للتكنولوجيا في أتلانتا - أميركا.

2 - مدير سابق لـ "أكاديمية نوبل للسلام"، ومؤرخ وبروفسور في جامعة ترومسو - النرويج.

3 - John Krige: American Hegemony and the Postwar Reconstruction of Science in Europe, p. 273.

4 - مدير المنتدى الباسيفيكي، ونائب مدير الدراسات الاستراتيجية في معهد الدراسات الاستراتيجية الوطنية التابع لجامعة الدفاع الوطني الأميركية سابقًا، وزميل شؤون الأمن القومي في مؤسسة هوفر بجامعة ستانفورد سابقًا.

5 - رالف كوسا وآخرون: الهيمنة الأمريكية والمنظمات الدولية، ص62.

نظامٌ مُحصَّن من الأزمات الخانقة، بل هو النِّظام الأكثرُ تماهيًا مع الحقِّ الطَّبيعي للإنسان. إذ هو يُسهم في تعزيز القوة الاقتصادية للدول الرأسمالية الغربية، ويَجعلها أنموذجًا يُحتذى به، وهو في الوقت نفسه الأنموذجُ الوحيد الناجح والشَّرعي في العالم، والقابل للحياة.

لا تكتفي أمريكا بفكرة "السُّوق الحرّة"، بل تتعداها إلى التَّرويج للتجارة الحرّة، التي تُعَدُّ من أبرز معالم استراتيجيتها لتعزيز نموذجها الاقتصادي وتأثيرها العالمي، ومن ثمّةَ فرض الهيمنة الشاملة على الأسواق العالمية، وتُقدَّم كثيرٌ من المناطق اللاَّغربية على أنَّها بفضل النِّظام الاقتصادي الرأسمالي الحرّ تقدَّمَت تقدُّمًا سريعًا قياسيًّا، مثل: هونغ كونغ (Hong Kong).

ويمَنح الانخراطُ في الاقتصاد الحرِّ مكاسبَ جمّةً للغَرب عامّةً. وأمريكا خاصّة، وأوَّلُها الحُصول على عالَم الأشياء (المادة الأولية) بأسعار رخيصة، بناءً على مبدأ التَّنافس وقانون العَرض والطَّلَب (الذي يتم التَّلاعب به ضمنيًّا)، وثانيًا الحصول على الأفكار واستثمارها بأقل تكلفة، وثالثًا الحصول على الأشخاص الأكثر كفاءة ونجاعة من العالم غير الغربي بأقلِّ تكلفة.

وعندما نُركِّز في العوالم الثلاثة (الأشياء، الأفكار، الأشخاص) سنَجِدُ أنَّ الاقتصاد الغربيَّ سيَكون قد هَيمَنَ على شروط الاقتصاد الناجح، وحقَّق فعلاً سيطرةً على الخيرات والخبرات. ولا سيما:

- **القمح (الهيمنة الغذائية):** تُحاول أمريكا منذ منتصف القرن المُنصرم السَّيطرةَ على التجارة العالمية للقمح، ليس عبر إنتاجها المَحلِّي فقط، بل عبر إلقاء فائضِ القمح لديها في البحر لِترتفِعَ قيمتُه المالية، وثانيًا عبر السيطرة على الإنتاج العالمي، ولا سيَّما أنها زَعزعت استقرارَ أوكرانيا عبر الثَّورة البرتقالية، مما جعل القمحَ الأوكراني تتحكَّم فيه أمريكا بطريقة غير مباشرة. واعتبر كثيرٌ من الدارسين أن القمحَ تحوَّل إلى سلاح خطير جدًّا، لأن الجوعَ أخطرُ من الموت الأزرق (النووي)، فسلاح الحبوب (The Grain Weapon) يكون أكثر فتكًا من الأسلحة التقليدية. وتَبدو الهيمنةُ واضحةً عبر مشروع "الشُّعاع الأزرق" (Project Blue Beam)[1]، أو ما يُعرَف بالنِّظام العالمي

1 - مشروع الشعاع الأزرق: نظرية تتحدَّث عن وجود خطة (غير معلنة) من قبل الحكومات الغربية، لتلفيق حدثٍ "المجيء الثاني" وإقامة "نظام عالمي جديد"، تمَّ اقتراح النظرية لأول مرة من قِبل الصحفي الكندي (سيرج موناست - Serge Monast) في كتابه الصادر عام 1994م بعنوان "مشروع الشُّعاع الأزرق" (ناسا).

الجديد المُرتقَب، والذي تَهدف أمريكا من ورائه إلى استِنساخ جينات القمح، ومن ثمّةَ الاستحواذ على البذور الأصلية، وإنشاء بنك خاصٍّ بها، وعندها يُصبح القمحُ وسيلة من وسائل الهيمنة والسَّيطرة.

- **البترول والطاقة (الهيمنة الصناعية):** يَسعى الغربُ إلى الهيمنة على مصادر الطّاقة العالمية، عبر الشَّركات متعدِّدة الجنسيات، وهي الوجه الأكثر فاعلية في الاستحواذ والهيمنة (الاحتلال الجديد)، وحينَ تفشل عبر الهيمنة المؤسساتية تلجأ إلى الحرب، ونشر الاضطراب في البلدان الغنية بالطّاقة. حيث كان العراق، وليبيا، وسوريا من أكبر النَّماذج التي تُبيِّن بوضوح شهوة السيطرة الأمريكية على منابع البترول والطاقة[1].
- **الدَّواء (الهَيمنة الصِّحية):** حسب مشروع "نهاية التاريخ"، وأيضًا مشروع "نهاية الإنسان"، يُعتبر الوباء من أهمِّ الوسائل لتحقيق التوازن البشري والبيئي، وأيضًا من أهم وسائل السَّيطرة على دول العالم، حيث أنَّ زَرْع الوباء أصبح مُمكنًا في أيِّ منطقة في العالم، ثم تأتي مرحلة بيع الدَّواء الذي سيُوفِّر للغرب خصوصًا أمرين، الأول الهيمنة السِّياسية، والرِّبح السَّريع والوفير. ولقد لا حظنا كيف استطاعت الدُّول الغربية، وعلى رأسها أمريكا، استغلال أحداث وباء "كوفيد19-"، وكيف استغلَّت الوَضع ببيع اللقاحات، والتي كان بعضها وهميًّا. وقد بيَّنَت بعضُ الدِّراسات المُمارسات الأمريكية غير الإنسانية تجاه الشعوب غير الأوروبية، على الرَّغم من الاتفاقيات المُبرَمة: "حيث تَفتح الاتِّفاقيةُ البابَ أمام شركات الدَّواء الأمريكية لاحتكار إنتاج هذه الأدوية وتحديد أسعار بَيعها، ومن ثَمَّ حرمان الشَّركات المَحلِّية من إنتاجها."[2].
- **الماء (الهَيمنة الشّاملة):** سيَكون الماءُ العنصرَ الرّابعَ في الهَيمنة على العالم، وسيُحاول محورُ الشرِّ الأمريكي استغلالَ منابع المياه والأنهار، لإخضاع بعض الدُّول، ولا سيَّما الدول التي تعتمد على مياه الأنهار في الزِّراعة والشرب. وقد تَنشأ صراعاتٌ كُبرى[3]

1 - Roland Dannreuther; Wojciech Ostrowski: Handbook on Oil and International Relations, p. 9.

2 - بشير عبد الفتاح: أزمة الهيمنة الأميركية، ص121.

3 - انظر: صلاح محمد عبد الحميد: صراعات وحروب المياه.

على المياه، تُغذِّيها القوى الغربية، لأجل الهَيمنة على الدول التي بها نقصٌ في الموارد المائية، ولا سيَّما أنَّ الماء هو أحد عناصر الحياة. ويَبدو صراع مصر مع إثيوبيا خيرَ دليل[1].

2 - الهيمنة السياسية:

تُعدُّ ثاني هدف للهيمنة، لأن السِّياسةَ تستطيع تحقيق الهدف الأول (الاقتصادي)، عبر ما يُسمِّيها (جوزيف ناي - Joseph Nye) "القوة الناعمة" (Soft power)[2]، والتي تَقوم على أساس هيمنة أمريكا وشركائها الغربيِّين على مفاصل السياسة العالمية، ولا سيَّما دول العالم غير الليبرالي، دون استعمال العنف أو القوة أو المال، بل فقط عبر السياسة الناعمة المَبنيّة على: "القدرة على الحصول على ما تُريد عن طريق الجاذبية بدلاً من الإرغام أو دفع الأموال"[3].

وتَبدو هذه النَّظرية جدّ خطيرة حتى على الولايات المتحدة نفسها، حيث أعرب (فوكوياما) عن رفضه لها، مُبيِّنًا أنَّها أضرَّت بفكرة "نهاية التاريخ"، حيث يقول: "لقد تضاءلت هذه الجاذبية إلى حدٍّ كبير: من الصَّعب على أيِّ شخص القولُ إنَّ المُؤسَّسات الدِّيمقراطية الأمريكية كانت تَعمل بشكل جيِّد في السَّنوات الأخيرة، أو إنَّ أيَّ دولة يجب أن تُقلِّد القَبليّة السياسية في أمريكا مع اختلال وظيفتها. السِّمة المُميِّزة للدِّيمقراطية الناضجة هي القدرة على إجراء عمليات نقل سلمية للسلطة بعد الانتخابات، وهو اختبار فشلت فيه البلادُ بشكل مُذهل في 6 يناير"[4].

إنَّ هذا الحكم جاء بناءً على مشاريع الهيمنة الغربية، والتي تمثَّلت في عدة مشاريع، أذكر منها مشروع "موجة الحرية" (Wave of Freedom) الذي يقوم على تصدير قِيَم الدِّيمقراطية، ولا سيَّما الحرية السياسية، إلى دول العالم، بغيةَ إحداث ثورات تُغيِّر الأنظمة الحاكمة، وتُشكِّل أنظمة تابعة لأمريكا وحلفائها. وتمَّ بالفعل زعزعةُ استقرار الدُّول في عدة مناطق من العالم، ولا سيَّما أن الغرب اعتمد على وسليتَين لتصدير مشروع موجة الحرية، الوسيلة الأولى هي "المال"

1 - انظر: عمر فضل الله: حرب المياه.

2 - Joseph Nye: Soft Power and American Foreign Policy, p. 255.

3 - Robert. O Keohane; Joseph. S. Nye: Power and Interdependence, p. 98.

4- https://www.economist.com/by-invitation/2024/01/08/francis-fukuyama-on-the-end-of-American-hegemony. (At: 09:23)

عبر تمويل المُعارِضينَ والمُوالين لها، والوَسيلة الثانية "الإعلام" عبرَ تَضخيم الأحداث، ودفع الكتلة الصامتة إلى الخروج والمشاركة في العصيان المَدنيِّ. ويمُكن أن نُحدِّدَ بعضَ أوجُهِ مشروع "موجة الحرية" على النحو الآتي:

أ - الثورة المخملية (The Velvet Revolution)

تُشير إلى سلسلة الأحداث والاحتجاجات، والتغيُّرات السياسية غير العنيفة، التي حدثت في جمهورية تشيكوسلوفاكيا سابقًا، والتي اندلعَت من نوفمبر إلى ديسمبر 1989م، وقد تمَّ استخدام مصطلح "المخمليّة" للتأكيد على الطَّبيعة السِّلمية للثورة الشَّعبية، وجاءت كردٍّ على الثورات الأكثر اضطرابًا وعنفًا في أجزاء أخرى من أوروبا الشرقية في الفترة نفسها.

وبيَّنَت الأحداثُ أن هذه الثورة كانت صنيعة المخابرات الأمريكية، وكانَت تُريد عبرها تصديرَ الثَّورة إلى باقي دول العالم، ولا سيَّما ذات التوجُّه الاشتراكي، وتقديمها كأنموذج للثورة السِّلمية الناجحة.

ب - الثورة البرتقالية (The Orange Revolution)

تُشير إلى جملة الأحداث التي حدثَت بأوكرانيا عام 2004م، والتي استعمل فيها المتظاهرون الألوانَ البرتقالية للدلالة على سِلميّتها، وأيضا كانت رمزًا للحملة الانتخابية لقوى المعارضة، المَدعومة من أمريكا والغرب. وقد أدَّت بالفعل إلى إحداث تغييرات جوهرية في البلاد، وخرجَت من ربقة الإيديولوجية الاشتراكية.

ج - الربيع العربي (The Arab Spring)

يُشير إلى الاحتجاجات التي شهدها العالم العربي بداية من نهاية 2010م، حيثُ خرجَت بعضُ الشُّعوب العربية في مظاهرات ضخمة، مُطالبةً بتغيير النِّظام وإسقاطه، وتبنِّي النِّظام الدِّيمقراطي كبديل سياسي يُحقِّق الحرية والسِّلمَ الاجتماعي، ويُحافظ على كرامة المواطن وحقوقه الأساسية.

كانَت تونس هي الانطلاقة والبداية، ثم انتشرت موجةُ الرَّبيع العربي كالنار في الهشيم، حيث طالَت مصرَ، ليبيا، سوريا، اليمن، وأدَّت في بعض البلدان إلى دمار كبير.

لقد بدا واضحًا، أن الربيعَ العربي كانت وراءه قوى غربية، أرادَت عبر هذه الاحتجاجات تحقيقَ مكاسب اقتصادية وسياسية، وقد تجلَّت في أحداث ليبيا خاصّةً، حيث تدخَّلَت مباشرة

في الحرب الأهلية، وأدَّت آخرَ الأمر إلى إسقاط نظام (معمر القذافي) الذي لم يعد نافعًا في تلك المرحلة.

حينَ ندرس ظاهرة الهيمنة الغربية نكتشف أنَّنا أمام إيديولوجية مُتوحِّشة، تُريد إلغاءَ الإيديولوجيات، لكنَّها هي نفسها إيديولوجية، ونحن نتَّفق مع ما ذهب إليه (مُطاع الصفدي) في مقدمته لكتاب (نهاية التاريخ): "واضحٌ أنَّنا أمامَ اغتصابٍ جديد لمفهوم التاريخ، وحركته ونهايته، يأخذُ شكلَ التأويل، لِيَبني مشروعًا إيديولوجيًّا في عصر تمَّ الاتِّفاق على وصفه بأنه عصر انهيار الإيديولوجيات."[1].

وهناك وجهٌ آخَرُ للهَيمنة الغربية، يتمثَّل في تفعيل النَّماذج السياسية البديلة، فحين لا تنفع "القوة الناعمة" يجب استعمال "الرأسمالية الاستبدادية"، التي تَسعى إلى الحفاظ على نظام الحكم اللاديمقراطي (ملكي/ ديكتاتوري) شريطةَ أن يَفتح مجاله الاقتصادي للدول الغربية، وأن يَنخرط في السُّوق الحرة العالمية، وهذه الفكرة راقَت لكثير من الأنظمة الاستبدادية، التي تَسعى إلى التَّنمية السَّريعة دون اعتناق قِيَم الدِّيمقراطية اللِّيبرالية؛ لأنها تُتيح لهم:

1. تغييرات في التوزيع العالمي للقوة: خَلق قوى غير ليبرالية سياسيًّا، ولكنَّها ليبرالية اقتصاديًّا، وهذا الأمر من شأنه إحداثُ تحوُّلات في التَّوزيع العالمي للقوة الاقتصادية، فيَضمن لكثير من الأنظمة غير الدِّيمقراطية مجالاً للتأثير في هَيمنة الرأسمالية اللِّيبرالية.
2. تفعيل التحوُّلات الجيوسياسية: تَشجيع التحوُّلات الاقتصادية والتكنولوجية للبلدان القابلة للتحوُّل الليبرالي، بُغيةَ تهيئتها اقتصاديًّا وسياسيًّا لاختيار الدِّيموقراطية اللِّيبرالية كبديل سياسي ناجح.
3. استراتيجية الحفاظ على نظام عالمي مستقرّ: تهدف الهيمنة الغربية إلى محاولة تشكيل نظام عالمي مستقرٍّ وصديق (بالمفهوم الغربي) للقِيَم الدِّيمقراطية اللِّيبرالية، لأجل تكوين المجتمع العالمي الحرّ.
4. تكوين تحالف مع البلدان ذات التَّفكير المُماثل: هناك دولٌ صديقة وحليفة على الرغم من طبيعة نظامها السِّياسي أو الاقتصادي المُخالف للدول الغربية، وعليه يجب تكوين تحالف مع تلك الدُّول التي تَتبنَّى القِيَمَ السياسية المُتماثلة مع الغرب. يقول (فوكوياما):

1 - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ص15.

"ورغم أنَّ اللِّيبرالية والدِّيموقراطية مُتلازمتان في العادة. فإنَّه يمُكن نظريًّا الفصلُ بينَهما. فمن المُمكنِ أن تكون الدَّولة ليبرالية دون أن تكون بالضَّرورة ديموقراطية."[1].

ولكن على الرَّغم من ذلك، نُسجِّل تعثُّر مشاريع الهيمنة السياسية، وحضور الأنظمة التقليدية في المشهد السياسي العالمي، مما يَجعل محور "الدَّمقرطة اللِّيبرالية" في أزمة فكرية. يقول (ياشا مونـك - Yascha Mounk) في مقالـه: (إعادة النظر في نهاية التاريخ): "ومـن ثَمَّ فإنَّنا نتوقَّع أن نُلاحِظَ ظهورَ الدِّيمقراطيات بشـكل عشوائي، فيما يتعلَّق بمستويات التنمية، ولكنها تموت في البلدان الفقيرة، وتَعيش في البلدان الأكثر ثراءً. وهكذا فإنَّ التاريخ يُراكم تَدريجيًّا الدِّيمقراطيات الغنيّة، لأنَّه في كل مرّةٍ تمَوت فيها دكتاتوريةٌ في بلد ثري، فإنَّ الدِّيمقراطية موجودةٌ لِتَبقى."[2].

3 - الهيمنة الثقافية

يَعتـبر (فوكوياما) وأنصار التيار اللِّيبرالي أن الثقافـةَ والتقاليد الاجتماعية هي أكبر عائقٍ أمام دَمَقْرَطة العالَم، ولذا يَسـعى السّاسةُ الغربيين إلى استئصال الثقافات المحلية ذات الخصوصية الاجتماعية، واسـتبدالها بثقافة العالَم الغربي، لأنَّ الهيمنة لا يُمكِنُ أنْ تكون هيمنة شاملة إلا إذا تمَّ القضاء على الثقافات المحلية، ولا سـيما الثّقافات الشرقية الأكـثر تأصُّلًا، وعليه كما يقول (فوكوياما): "تَسعى كافّةُ المُجتمعات اللِّيبرالية الحقيقية من حيث المبدأ إلى استئصال الأسباب التَّقليديـة لِعَدَمِ المُسـاواة (منفذ الهيمنة). كذلك فإنَّ دينامية الاقتصادات الرأسـمالية تمَيل إلى الإطاحة بالكثير من العَوائق التقليدية والثقافية في سبيل المساواة، بفضل التغيُّر الدائب في طلبها للأيدي العاملة."[3]، ويقوم مخطط الهيمنة الثقافة على ما يأتي:

أ - الترويج للقِيَم الغربية

تَرتبـطُ فِكرةُ "نهاية التاريخ"، في نموذجهـا الأمريكي لتعزيز القِيَم الثقافيـة الغربية ذات البُعد السياسيّ والاقتصادي، باعتبارها قابلة للتكيُّف مع المُعطى الدِّيمقراطي اللِّيبرالي، وهذا يُتيح شكلاً

1 - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ص55.

2 - https://www.journalofdemocracy.org/articles/the-end-of-history-revisited/#f13. Yascha Mounk "The End of History Revisited". (At: 13:08 M. 11/01/2024)

3 - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ص253.

من أشكال الهيمنة الثقافية، من منطق أنَّ المَعايير الغربية هي معيار عالمي لجميع المجتمعات.

ب - التَّناغُم الثقافي (عولمة الثقافة)

هي محاولة توجيه الشعوب إلى نمط ثقافي مُوحَّد، يتَّخذ اسمَ "المشترك الثقافي"، بيْد أنه في جوهرِه هو فرضُ ثقافة غيرِ مشتركة أصلاً، بل ثقافة غربيـة مرتبطة بالاقتصاد الحرِّ والمُتوحِّش، وتَخدم ثقافة الاستهلاك، والتحرُّر من القيم الاجتماعية، ولا سيَّما الثَّقافة التي تَميل نحو تكوين مواطن عالمي يُؤمِنُ بالحرية الفردية، والقِيَم المُتحوِّلة، ويَسـعى إلى تغيير المُتعارَف عليه، ولقد لاحَظنا كيف تمَّ نشرُ ثقافة المِثليّة بقوة السياسة.

ج - الاستهلاك الحضاري

مفهومٌ أورده (فوكوياما) لِيُشير إلى نمط الحياة ضمن المجتمع العالمي المُرتقَب، حيث يُصبِـح المواطن العالمي كائنًا مُسـتهلكًا لمنتجات الحضارة الغربيـة، ويتحوَّل هذا النَّمط الحيـاتي إلى ثقافة يومية، على الرغم أنَّ شـعوب أمريـكا اللاتينية، وآسـيا، وإفريقيا، لحدِّ السـاعة، تُعَدُّ عائقًا أمام هذا الأنموذج، إلا أن نجاح الغرب في تصديره إلى الخارج بإمكانه إحـداثُ قطيعـة تاريخية. حيث يَعتقد (فوكوياما): "بوُسـعِنا الآنَ وَفق هـذه الآلية أن نُفسِّر ازدهار حضارة استهلاكية عالمية، تقوم على أسـاس المبادئ الاقتصادية العالمية الليبرالية في العالم الثالث والأول والثاني على حدٍّ السّـواء. فالعالَـم الاقتصادي الإنتاجي الدِّينامي العظيـم، الذي خلقته التكنولوجيا المُتقدِّمة، والتَّنظيم العقلانيُّ للعمل، يتمتَّع بقدرة عظيمة عـلى تحقيق التجانُس بين الشـعوب والدُّوَل، وعلى الرَّبط بـين المجتمعات المُختلفة في عالمنا، بفضل إقامة أسـواق عالمية، وخَلْق مطامِحَ ومُمارسات اقتصادية متوازية في حشدٍ من المجتمعات المُتباينة."[1].

4 - الهيمنة اللغوية

لا تقف الهيمنة على ما ذكرناه سابقًا، والذي قد يَبدو مألوفًا للبعض، لكنْ هناك هَيمنة أخرى لا تقلُّ خطورةً على الهُويات والثقافات المَحلِّية والعالمية، والمُتمثِّلة في إرادة فرض اللغة الإنجليزية[2]

1 - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ص107.

2 - See: Ulrich Ammon: The Dominance of English as a Language of Science: Effects on Other

كلغــة علم، وتجارة، وتعامل. وهو في حدِّ ذاته توجُّه إمبريالي يُفيد مدى خطورة التفكير الأمريكي والحليف البريطاني في فرض اللُّغة بطرق ناعمة أولاً، لا سـيَّما عبر الإعلام، والسينما، والإشهار، ثم بِطُرق الإكراه، عبر ربط المساعدات، والحماية باعتماد الإنجليزية لغةً ثانية على الأقل في كثير من دول العالم. يَعتقد (روبرت فيلبســون) - (Robert Phillipson) في كتابه المُهمّ (Linguistic Imperialism Continued) أنَّ فَرض اللُّغة الإنجليزية يَتناغم إلى حدٍّ كبير مع فكرة الإمبراطورية الجديــدة، والتــي تَرى أنَّ العَولمةَ تَفــرض أن تكون الإنجليزية هي لغة العــالم الوحيدة: "ولذلك هناكَ تحدٍّ حَقيقيٍّ لاستكشــاف كيف ولماذا يتغيَّر اســتخدامُ اللُّغة، وكيــف يَرتبطُ ذلك بالعوامل الاقتصادية والسِّياســية. في توضيح الأبعاد اللُّغوية للعَولَمة، فيما يتعلَّق بقوة الشَّركات وما يُمكن اعتبارُه الإمبريالية الجديدة[1] أو الإمبراطورية النيوليبراليــة[2]، فإنَّ التحدِّي الذي يُواجهُ علمَ اللُّغة الاجتماعي الكلِّي هو تحديد العوامل المُؤثِّرة على سياسة اللُّغة الحالية والمُستقبليّة .. تتمُّ معالجة هذه القضايا من خلال توثيق توسُّع 'اللغة الإنجليزية العالمية'، وتتبُّع جذورها التاريخية، ومُحاولة وضع مبادئ نظريّة مناسبة لدراسة اللُّغة الإنجليزية للإمبراطورية الجديدة"[3].

5 - الهيمنة العلمية والتقنية (Scientific and technical dominance)

نقصد بالهيمنة العلمية والتّقنية احتكارَ مجال العلم والمعرفة من قبل مؤسَّسات عالمية، حيث أصبحت بعض الدُّول لا سيَّما الغربية تتَّجه صوب الاحتكار العلمي والتِّقني لأجل بسط الهيمنة على العالم. وتَســعى الدُّول المُهيمنة إلى تقاســم مناطق النُّفوذ العالمي بينَها: " إنَّ الدُّول ذات القــوى العُظمى تُفضِّل القيادةَ الأحاديّةَ القُطب. إذا كانت هناك دولتان كبيرتان، فإنَّهما تُفضِّلان عالَمًا منفصلاً ومُقسَّــمًا إلى مناطق نفوذ، بدلاً مــن التَّنافُس مع بَعضهما البعض."[4]، ويمُكن أن تتجلَّى هذه الهيمنة في بعض المَجالات التي سنَذكرُها على سبيل المثال:

Languages and Language Communities.

1 - See: David Harvey: A Brief History of Neoliberalism.

2 - See: Jan Nederveen Pieterse: Neoliberal Empire.

3 - Robert Phillipson: Linguistic Imperialism Continued, p. 104.

4 - Kai A. Konrad: " Dominance and technology war" At: 12.24M. 11/01/ 2024.) <https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0176268023001374>.

أ - تعزيز البحث والتَّطوير

يكونُ عبرَ الاستحواذ الكلِّي والسَّبق في البحث العلمي في مختلف التخصُّصات، ولا سيَّما العلوم الفيزيائية والكيميائية، وعلوم الأحياء والحياة، والطِّب والصَّيدلة، وأيضًا علوم الفضاء.

ب - الابتكار التكنولوجي

يتمثَّل أساسًا في التقدُّم في تكنولوجيا المعلومات، والتكنولوجيا الحيوية، والذكاء الاصطناعي، وتكنولوجيا النَّانو، والطَّاقة المُتجدِّدة.

ج - جذب القوى العالمة

يتـمُّ عبرَ جذب الكفـاءات العلمية العالمية ذات المَهارات العالية، مـن جميع أنحاء العالم. والتَّواصُل مع الجامعات والمؤسسات البحثية بغيةَ التَّشارُك والتَّعاون (ظاهريا)، بينما الغاية هي استثمار ما وصلَت إليه من بحوث ودراسات.

تبـدو الغايةُ مـن الهيمنة العلميـة (المعرفية)[1] هي الرِّيـادة في مجال العلـوم، والتَّحكُّم في التكنولوجيـا الجديـدة، والوَصول إلى الرَّخاء الاقتصـادي، مع تَحقيق جـودة الحياة للمواطن الغربي. بيدَ أنَّ الغايةَ الكبرى تكمُن في تعزيز الأمن القومي، والنُّفوذ العالمي.

ثانيًا: آليات المقاومة والمواجهة

انتفضَت الأنتليجنسـيا سواء بالغرب أم في العالم ضدَّ فكرة "نهاية التاريخ"، وبيَّنَت أنَّها مَقولةٌ تهـدف إلى إضفاء الشَّرعية على الرَّغبة الأميركية في السَّـيطرة والهَيمنة على العالم، وذهبَ كثير من الدِّراسـات النَّقدية إلى تحليل اللامنطوق، واستنطاق المَسـكوت عنه، وتَقديم الوجه الذي تتوارى خلفَه فلسفاتُ تَدجين العالَم، ومحاولة أمركته سياسيًّا واقتصاديًّا.

ويمُكِنُ أن تكون المُجابَهة فعّالةً، والنِّضال ناجحًا، إذا التزمنا بما يأتي:

1 - تفعيل الدِّراسات النقدية الجادة

إنَّ نقد الأسـاس الفلسفي لمشاريع الهيمنة أمرٌ ضروريٌّ ومهمٌّ، لأنه يُبيِّن اللامَنطوق، ويَهتك سـتار التَّواري خلفَ مصطلحات تحمل خطابًا إيديولوجيًّا لا يَتوافق مع المشترك الإنساني، ولا

1 - انظر: عبد المُعين الشواف: بارونات المال والأعمال الجُدد.

مع التَّعارُف الحضاري الذي نادَت به الأديان السَّماوية بالخصوص.

ويَبدو أنَّه من المُهمِّ القولُ إنَّه على الرغم من الزَّخَم الإعلامي والسياسي لمقولة النِّهاية، إلا أنَّ هناك أيضًا العديد من الانتقادات والتحدِّيات التي تُواجه استراتيجيّةَ الهيمنة الغربية. ويَعتقد كثيرٌ من فلاسفة الغرب أنفسهم أنَّ التاريخ لم يَنتهِ بعدُ كغاية، وأنَّ التحدِّيات السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يَعيشها المجتمع الغربيُّ اليوم تُظهرُ بدايةَ نهايته. ويعود البعض إلى فلسفة التاريخ لدراسة المسألة، ولا سيَّما رؤية (أزفولد شبنغلر - Oswald Spengler)[1] الذي اعتبر أنَّ الغربَ دخلَ مرحلةَ الأُفول والنِّهاية، وأنَّ فلاسفة الغرب لا يَنظرون إلى العالَم كوحدة، بل يَنظرون إلى العالم على أنَّه هو الغرب: "إنَّنا اليوم نُفكِّر بقارات، وفلاسفتُنا ومُؤرِّخونا وحدَهم هم الذين لم يتحقَّقوا من هذا الأمر. إذنْ فأيّةُ أهمِّيةٍ للمفاهيم ومجالات الإدراك التي يَضعُها هؤلاء أمامَنا بوصفها ذات صحّة كونية بالنسبة إلينا، وذلك عندما نَرى أنَّ أبعدَ آفاقهم لا يَمتدُّ ليَتجاوز الدّائرة الذِّهنيّةَ للإنسان الغربي."[2].

2 - التركيز على التحالفات البديلة (التعددية القطبية)

إنَّ محاولة جعل العالم بأسره يَخضع لقطب واحد تُعدُّ محاولةً خطيرة، على الصعيد السياسي والاقتصادي، لأنَّ المَنطقَ السَّليم يَفرض أن تتوزَّع السُّلطةُ بشكل متزايد بين أقطاب مُتعدِّدة، مع عدم وجود إمكانية تفرُّد دولة واحدة بالهَيمنة المُطلَقة.

لقد حاول الفرنسيون في عهد (جاك شيراك - Jacques Chirac) تقديمَ مفهوم "الأوْرَبَة" (Europeanization) كمحور ضدَّ الأمْرَكَة، نظرًا لإدراكهم مَدى الهيمنة الأمريكية على أوروبا، مع تراجُع نفوذهم في العالم. إلا أنَّ هذا المحور لم يُكتَب له النَّجاح، لا سيَّما بعد أن خرجت بريطانيا من منظمة الاتِّحاد الأوروبي.

ونرى المُحاولة ذاتها صاغَها بعضُ المُفكِّرين العرب، حيث ظهر مصطلح "العَوْرَبة" كمحور بديل عن خطِّ جماعة نهاية التاريخ، بيدَ أنَّ الفكرة لم يُسمَع لها، ولم تجدْ رواجًا.

---

1 - مؤرخ وفيلسوف ألماني، يعرف بكتابه «انحدار الغرب» (بالألمانية: Der Untergang des Abendlandes)، وترجم كتابه إلى اللغة العربية بعنوان "تدهور الحضارة الغربية".

2 - أزفولد شبنغلر: تدهور الحضارة الغربية، ج1، ص70.

وحاليًّا نشاهد التكتُّل الجديد للقوى المُناوئة للهيمنة الأمريكية، والذي يُسمى (بريكس=BRICS)، وهو تحالُفٌ دوليٌّ أسَّسته بعضُ الدُّول القوية كالصين، وروسيا، والهند، وستَنضمُّ إليه تباعًا بعضُ الدُّول النامية.

3 - تفتيت المركزية والقطبية الأحادية

بُنيت الهيمنة الغربية على منطق "المركزية اللِّيبرالية" أو القطبية الأحادية، وهي تُريد أن تُحكِمَ سيطرتَها على العالَم عبرَ التمركُز الأيديولوجي المُهيمِن، وكان (أزفولد شبنغلر) قد انتقدَ هذه النَّزعةَ الثيموسية الغربية، واعتبرَها محاولةً يائسة لوقف حركة التاريخ: "كانَ شبنغلر واحدًا من أوائل وأعنَفِ المُنتقدينَ للمَركزيّةِ الأوروبية واستعلائها الثَّقافي."[1].

وهاجمَ بعضُ الدّارسينَ الغَربيِّينَ الهَيمنةَ الغربيّةَ المُوشَّحةَ بمقولات النِّهاية والاصطفاء، فـ (كولن بيتر مويرز - Colin Mooers) يَسِم مُفكِّري الاستراتيجية الغَربية للهَيمنة بكلاب "الحراسة الجُدد"، حيث يَعمل هؤلاء على تبرير الحرب، والتقعيد للصِّراع الدائم، وحراسة الإمبراطورية الجَديدة: "حين تَغدو الحربُ الدّائمةُ (الحالة العادية الجديدة)، لعصرنا، يتَّضح لماذا أصبحَ خطابُ الإمبراطورية الجديدة على هذه الدَّرجة من الأهمِّيّة بالنِّسبة لأولئك المُدافِعينَ عن هذا النِّظام الجديد للأشياء: لقد غَدا تطبيعُ الحَرب والفُتوحات والغزوات الإمبريالية ضرورةً إيديولوجية مُلِحّة."[2].

4 - نبذ فكرة الاستثناء الأمريكي

يُحاول مفترسو الأفكار الجُدد توجيه النّاس إلى الاعتقاد أنَّ الولايات المتحدة حالة "استثنائية" ومتفوِّقة في العالم، ويَجوز لها ما لا يَجوز لغيرها، باعتبار أنَّها امتلكَت ميكانزمات الهَيمنة والسَّيطرة. وهذا ما حاول (فوكوياما) وغيرُه من مُنظِّري السياسة الأمريكية قولَه ونشرَه، ومُحاولة تصحيح الأخطاء الناجمة عنه، حيث يقول: "تقوم 'الهَيمنة الخيِّرة' على الإيمان بالاستثنائية الأمريكية ... وفكرة أنَّ الولايات المتحدة تتصرَّف على مسرح العالم تصرُّفًا نَزيهًا ليسَت موضعَ

1 - طارق علي وآخرون.: الإمبرياليون الجدد، ص84.
2 - كولين بيتر مويرز وآخرون.: الإمبرياليون الجدد، ص19.

تصديق واسع، لأنَّها في مُعظمها ليسَـت صحيحةً ... إنَّ الولايات المتحدة قادرةٌ على التصرُّف تصرُّفًـا كريمًا في توفير أعـمال الخَير العالمية، وكانَـت الولايات المتحدة أكـرَمَ ما تكون حين تطابقَت مُثُلُها العُليا مع مصالحها الخاصّة. ولكنَّ الولايات المتحدة قوةٌ كبيرة أيضًا لها مَصالحُ غيرُ متَّصلة بأعمال الخَير العالمية."[1].

وقد جرَّت هذه النَّظرة الاسـتثنائية أمريكا إلى مطبّـات في علاقاتها الخارجية مع دول العالم، ويُفيـد الباحـث (إدوارد لاك - Edward Lake) أنَّ: "أكثر مِن عِقد مـن الزمان مرَّ على ذلك إذن (يقصد الاسـتثناء)، وما زالَت أنماطُ الازدواجيـة الأمريكية تجاه القواعـد الدولية والمنظمات مُتعدِّدة الأطراف – التي نشأت عن أحساس عميق ومتجذِّر بالاستثنائية سِمة واضحة في السياسة الخارجية والأمنية للولايات المتحدة."[2].

بيْـدَ أنَّ الحقيقةَ تتجلَّى في كون الهَيمنـة الأميركية تُقوِّضُ العالَمَ بأسره، وتَنتَقِصُ مِن سـيادة الدُّوَل الأُخرى، وتُغذِّي ظاهرةَ الاستياء ومعاداة أميركا والغرب، ويترتَّب على ذلك أزماتٌ عالمية، وحروبٌ لا تنتهي، وستُشكِّل مأساةً إنسانية كبرى.

خاتمة

أُوافق (فرانسوا شاتيلي - François Châtelet) حين صرَّح: "إنَّ نهاية التاريخ هي نهاية الآخَر الذي يُقاتـلُ الأوربيَّ."[3] بمعنى أنها مقولـةٌ إيديولوجية تدخل ضمن آليّـات الحرب. فالغربُ اسـتعملَها من منظور نفسيٍّ، إذ تُوحي بانتصار الغربِ أولاً على المحور الشُّـيوعي، الذي هدَّد أوروبا في عقيدتهـا البرجوازية، وفي جغرافيّتِها وتاريخها، وهي أيضًا إعلان حرب نفسـيّة على جميع التكتُّلات العالمية المناوئة للغَرب، كالصين، والهند، والعالم الإسلامي. وعليه فهي تَبدو نظريةً للصِّدام أكثر منها للنِّهاية والاستحواذ[4].

إنَّ السُّـؤال عمّا إذا كُنّا نُواجِهُ نهاية التاريخ، بالمَعنى الغربي (بداية الهيمنة الغربية العالمية)،

1 - فرانسيس فوكوياما: أمريكا في مفترق الطرق، ص151.
2 - إدوارد لاك وآخرون: الهيمنة الأمريكية والمنظمات الدولية، ص62.
3 - فرانسوا شاتيلي: هيجل، ص200.
4 - حسين علي: نهاية التاريخ أم صدام الحضارات، ص82.

أو "نهاية التاريخ" بالمَعنى المُناقض، هي مسألة ليسَت مُعقَّدة كما يَعتقد البَعضُ، بل هي مسألة عادية في حركة التاريخ، فأيُّ أُمّة تَصِلُ مُستقبَلاً إلى المستوى الذي وصلَه الغرب اليوم، ستَقوم بالعملية نفسها، أي محاولة السَّيطرة والهيمنة على أُمَم العالم.

وسيَبقى التاريخُ مستمرًّا نحو نقطة نهايته الأخيرة، والتي يُحدِّدها مُحرِّك التاريخ وخالق الكون، وتَبقى مَقولاتُ كلِّ مَن يدَّعي نهايةَ التاريخ مُجرَّدَ شعارات إيديولوجية لن تُؤثِّرَ في المشهد الحضاري كثيرًا. ولا سيَّما محاولة التحوُّل من "اقتصاد السُّوق" إلى "مجتمع السُّوق"[1].

إنَّ المُشكلةَ ليست في قيادة العالم، بل في الهَيمنة والاستحواذ، حيث نعتقد أنَّ التاريخَ يَفرض أن يكونَ مَجراه تحت قيادة أُمّة من الأُمم، شريطة أن تكون قد اكتملَت لديها شروطُ السِّيادة، لأنَّه دون وجود أُمّة قائدة للعالم سيَكون الصِّراعُ والفَوضى لا حدَّ لهما.

إنَّ الأمة القائدة هي الأمة التي تتمسَّك بسُنن الكون، وتُحقِّق سيادتُها قِيَمَ الحقِّ، والخير، والحبِّ. وتُعامِلُ الأُمم الأخرى وَفق منطق التَّعارف الإنساني، والكرامة البشرية، والتَّجاوُر الحَيّ. حينها تكون تلك الأُمّةُ حقَّقَت مبدأ الشَّهادة الحضارية، واستحقَّت مصطلحَ الاستخلاف، ودخلَت التاريخ ولم تُنهِه، بل تَبْتَدِئُهُ على نهجٍ جديد، ونحو غاية هي أكبرُ ممَّا يَطمح إليه "كلاب الحراسة الجُدد"، على حسب تعبير (كولن بيتر موريز).

1 - نجيب جراد: نظرية نهاية التاريخ عند فرانسيس فوكوياما، ص29.

المصادر والمراجع

باللغة العربية

1. بشـير، عبد الفتـاح، أزمة الهيمنة الأميركيـة، نهضة مصر للطباعة والنـشر، القاهرة، ط1 2010م.

2. جـراد، نجيب، نظرية نهاية التاريخ عند فرانسـيس فوكوياما: على محك التاريخ الآني، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1، 2013م.

3. شاتيلي، فرانسوا، هيجل، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ط2، 1976م.

4. شبنغلر، أزفولد، تدهور الحضارة الغربية، تر: أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بـيروت، ط1، د.ت.

5. الشـواف، عبد المُعين، بارونات المال والأعمال الجُدد، دار الشـواف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2016م.

6. عبـد الحميد، صلاح محمد، صراعات وحروب المياه، مؤسسـة طيبة للنشر والتوزيع، القاهـرة، ط1، 2010م.

7. علي، حسـين، نهاية التاريخ أم صدام الحضارات؟، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2002م.

8. فضـل اللـه، عمـر، حـرب المياه، دار نهضـة مـصر، القاهـرة، ط1، 2013م.

9. فوكوياما، فرانسيس، أمريكا في مفترق الطرق، تر: محمد محمود التوبة، مكتبة العبيكان للنشر، الرياض، ط1، 2007م.

10. فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهـرة، ط1، 1993م.

11. كوسـا، رالف؛ وآخـرون، الهيمنة الأمريكيـة والمنظمات الدوليـة: الولايات المتحدة والمؤسسـات متعددة الأطـراف، تر. أحمد حـالي & الطيب غوردو، إي-كتـب، لندن، ط1، 2016م.

12. مويرز، كولين بيتر؛ وآخرون، الإمبرياليون الجدد: إيديولوجيات الإمبراطورية، تر. معين

إمام. دار العبيكان للنشر، الرياض، ط1، 2008م.

13. النقيد، سيف محمد حيدر، نظرية "نهاية التاريخ" وموقعها في إطار توجهات السياسة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، أبو ظبي، ط1، 2013م.

باللغات الأجنبية

1. Bossuet, Jacques-Bénigne, Œuvres de Messire Jacques-Bénigne Bossuet. ToM 02, France: chez Antoine Boudet, 1778.

2. Dannreuther, Roland; Ostrowski, Wojciech, Handbook on Oil and International Relations. USA: Edward Elgar Publishing, 2022.

3. Harvey, David, A Brief History of Neoliberalism, 2005 Edition, (First Edition) Publisher: UK, OUP Oxford.

4. Joseph Nye, “Soft Power and American Foreign Policy”, Political Science Quarterly, 1192004) 2/).

5. Keohane, Robert. O and Nye, Joseph. S. Power and Interdependence. United States, Pearson Education, 2011, Fourth Edition.

6. Krige, John. American Hegemony and the Postwar Reconstruction of Science in Europe. USA: MIT Press, 2008.

7. Phillipson, Robert. Linguistic Imperialism Continued. London: Routledge, 2013.

8. Pieterse, Jan Nederveen, Neoliberal Empire, London: Routledge, 2004.

9. Ulrich Ammon. The Dominance of English as a Language of Science: Effects on Other Languages and Language Communities. New-York: Walter de Gruyter, 2011.

10. https://www.economist.com/by-invitation/202408/01//francis-fukuyama-on-the-end-of-american-hegemony

11. https://www.journalofdemocracy.org/articles/the-end-of-history-revisited/#f13

12. https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0176268023001374